

خطبة الوزير بلنور

(رأس الوزير بلنور يجمع ترقية العلوم البريطاني الذي التأم في اواسط اغسطس في مدرسة كبرج الجامعة وخطب فيه خطبة انيقة جعل موضوعها "تأملات مبنية على الرأي الجديد في المادة" وهو الرأي الذي بسطناه منذ بضعة اشهر ومفاده ان جواهر المادة التي كان يقال انها جواهر فردة او اجزاء لا تتجزأ مؤلفة من دقائق كبريائية صغيرة جداً فانكبريائية اصل المادة او الميولي . وما تعرب الخطبة)

ان هذا الجمع يلتم غالباً في المدن المزدهمة بالسكان حيث تزدكرشدة ارتباط العلم الحديث بالصناعة الحديثة اذا جاز لنا ان ننسى ذلك اي ارتباط المباحث المجرّدة التي يشتغل بها رجال العلم باعمال المختريين والصناع . وهذا امر لا بد منه لانه لا يمكن نفي الارتباط التام بين العلم والعمل ما لم يُصَرَّ الاثنان معاً ومن يستخف بما يستفيدة كل منهما من الآخر فليس هو بالصديق الخيم لهذا ولا لذلك

ولكن قد انشئ هذا الجمع لترقية العلوم فيحسن ان يُختار لا للتسامي من وقت آخر مكان نجه العناية فيه الى المباحث العلمية المجرّدة أكثر مما نجه الى تطبيقها على العمل . وان كان الامر كذلك فلا مكان اصح له من دور هذه المدرسة القديمة الجليلة لانه ان كان للمكتشفات الطبيعية مقر فمقرها هنا وان كان للذين يعتقدون ان العلم الطبيعي هو علم العلوم واصلها دار تحب بهم فهنا تلك الدار . وان لم يكن مخطئاً بفرضي للمدرسة التي ربيت فيها فليس في العمور بقعة مثل هذه اتصل بها بالدرس او بالتدريس عدد عديد من المشاهير الذين اكتشفوا الحقائق الطبيعية البعيدة . لا اقول شيئاً عن باكون نبي مصر الجديد ولا عن دارون كوبرنكس علم الحياة لان يجني ليس في ما اضافته هذه المدرسة الى العلوم بنوع عام بل في ما اضافة العلماء الطبيعيين الذين تعلموا او علموا على رمية سهم من هذا المكان — من نيوتن في القرن السابع عشر الى كفنديش في الثامن عشر ونيغ وستوكس ومكسول في التاسع عشر وكلفن الذي يستحق عصره ان يسمى به الى رابلي ولارمور وطمسن وجهور العلماء الذين معمل كفنديش مركز حلقهم وارؤم العلمية تجعل اوآخر القرن الماضي واوائل هذا القرن مثل اشهر القرون السالفة

وما هو البحث الذي عكف عليه هؤلاء الافاضل ورمفاؤهم من كل البلدان والى اي غاية كانت ترمي مباحثهم الطبيعية التي اشترت اليها . فقد طالما قيل ان قرضهم كشف

النواميس التي تربط الظواهر الطبيعية بعضها ببعض . ولكن هذا القول لا يُعرب عن الحقيقة ولا هو وافي بالمراد فأولاً لا يصح أن يطلق اسم الظواهر على الامور التي لا تظهر لمخالفات مشاعرهم ضعيفة مثل . شاعرنا ولم تظهر قط ولن تظهر ابداً . وهذا الخطأ لغوي راسخ يعتدّر اصلاحة فاذا غضضنا الطرف عنه وجدنا خطأ آخر وهو ان اكتشاف النواميس الطبيعية هو كل ما يُطلب من البحث في الطبيعة . فان العالم الطبيعي يطلب شيئاً آخر واما يحدث مع الظواهر ويتلوه من النتائج . يطلب شيئاً وراء النواميس التي تربط الحوادث الطبيعية وغرضه معرفة ماله وجود طبيعي حقيقي ابي معرفة الحقيقة الطبيعية وهذه الحقيقة قد يمكن ان تُدرّك وقد يمكن ان لا تُدرّك ولكنها مستقلة عن الادراك وبها يقوم نظام العالم المادي الذي اتصاله به طفيف جداً ولا يعتمد عليه . اما انه يوجد شيء له وجود حقيقي فامر يعتقد العلماء ولو انكروه الفلاسفة واذا فرغت المجال وقلنا ان الانتقاد ينفي هذا الاعتقاد فالعلم كما يفهمه العلماء يزول ايضاً ولا يبقى له وجود

وان كان الامر كذلك وان كان من اغراض العلم ولاسيما العلم الطبيعي ادراك العالم الطبيعي في حقيقته ابي ادراك الحقيقة التي لها وجود حقيقي فيه فالمقابلة بين الصور العقلية المختلفة التي صورت بها هذه الحقيقة في الصور المختلفة بينه الذهن الى مسائل على غاية الاهمية . ثم انه لا يحق لي ان ابحت في ما كان من هذه المسائل فلسفياً محضاً لان المجمع ليس فلسفياً ولا يحق لي ايضاً ان ابحت في ما كان منها علمياً محضاً لاني لست كفؤاً لذلك ولكن من هذه المسائل ما يقع بين بين ويحمل العالم الطبيعي والفيلسوف المتقطع للفلسفة على التساهل لمن يعتدي على حرميهما مثلي كما سافعل في الدقائق التالية

ومرادي الآن ان اقابل بين صورتين من هذه الصور الاولى منهما تمثل الآراء التي كانت متغلّبة في اواخر القرن الثامن عشر بعد ظهور كتاب المبادئ الذي وضعه نيوتن باكثر من مئة سنة وذاك الوقت متوسط بين ظهور ذلك الكتاب وبين عصرنا الحاضر . واظن انه لو سئل جمهور العلماء حينئذ ان يصفوا العالم الطبيعي كما يبدو لهم وكما يعتقدونه لقالوا على الراجح انه مؤلف من عناصر مختلفة ذات ثقل لها تراكيب كثيرة منتشرة في الفضاء تظهر على صور مختلفة بفعل الالفة الكيماوية والحرارة . وهما اختلفت صورها فهي خاضعة لتواميس الحركة ومادتها لا تتغير وهي تجذب وتنجذب من كل الجهات حسب ناموس الجاذبية العام مهما كانت الابعاد . وقد يضيفون الى هذه المادة ذات الثقل شيئاً لا ثقل له وهو الحرارة وكانت تجذب حينئذ بين العناصر و يضيفون ايضاً سائلين هما السائلان الكهربيان والذرات التي يتألف النور منها

وكان العلماء يتصورون ان الافعال تنتقل من مكان الى آخر من غير موصل ولم يكن احد يحلم حينئذ بما يقال له 'حفظ القوة'. وقد بحثوا في الكهربائية والمنطيسية بحثاً مهماً ولكنهم لم يعلقوا عليهما شيئاً كبيراً ولا اضطروا الى فرض وجود الاثير لتكميل نظام الكون ولكن حدث في ذلك الحين ما كان سبباً لتغيير عظيم في آراء الناس فان بنغ فنج باب المناظرة التي ادت اخيراً الى اثبات مذهب امواج النور والى الاعتقاد بوجود مادة بين الكواكب لا يصل هذه الامواج. ولا يقتصر ذلك على اثبات مذهب صحيح وتقض مذهب فاسد بل يتناول امرآ آخر وهو ادخال عنصر جديد شامل في صورة العالم على ما كانت يتصورها العلماء حينئذ. وهذا العنصر الجديد غير كل الآراء القديمة ولا يزال يغيرها. فان نظام الكون حسب مذهب لابلاس يكفيه ان يكون الفضاة واسعاً الى غير نهاية والشحوس واقارها منتشرة فيه على ابعاد شاسعة بعضها تام التكوين وبعضها لا يزال آخذاً في التكوّن ولكن اذا كان الفضاة غير المتناهي مملوءاً بمادة متصلة الاجزاء فالحال يختلف تمام الاختلاف ولا بد من ان يستدل منه على امور اخرى لانه لا يمكن ان يظن ان هذا الاثير ان كان موجوداً حقيقة فهو انما وجد لكي يوصل الى عين الانسان الامواج التي اتفق انها تؤثر في عصب البصر. فقد فرض وجوده لهذه الغاية ولكن يستحيل ان يكون وجوده مقصوراً عليها ولذلك فالاشياء التي تمتاز بعضها عن بعض من حيث الشعور بها كالنور والحرارة والاشياء التي لا تؤثر في المشاعر مثل الامواج الكهربائية في التعرف الذي لا سلك له تختلف اخلاقاً جوهرياً في الكم لا في الكيف كما هو معلوم الآن

وهذا ليس الكل ولا يداني الكل فاننا اذا فتنا القرن الذي يفصل سنة ١٨٠٤ عن سنة ١٩٠٤ وحاولنا رسم صورة العالم كما يتصورها بعض قادة الافكار الآن نجد انها تغيرت عما كانت عليه ولم يقتصر تغييرها على الاكتشافات الواسعة النطاق كالرأي الجوهري وتألف المادة من الدقائق وحركة دقائق الغازات ونواميس حفظ القوة وتوزعها بل تناول ما هو اهم من ذلك كثيراً تناول المقام الذي عرف للكهربائية والاثير في كل ما يدل على الحقائق الطبيعية التي يمكن البلوغ اليها

فقد كانت الكهربائية في نظر الفلاسفة الطبيعيين سنة ١٧٠٠ سبباً خفياً لبعض الظواهر الطفيفة وعرّف حينئذ بل منذ عهد قديم ان بعض المواد كالكهرباء والزجاج تفرك فتصير تجذب الاجسام الخفيفة التي تقرب منها. وبعد نحو خمسين سنة عرف فعل الكهربائية في الصواعق وبعد نحو مائة سنة من التاريخ الاول عرف انها تجري كالمائل وبمدمة وعشرين سنة

منه عرف ان لها علاقة بالمنطيس وبعد ٧٠ سنة عرف ان لها علاقة بالنور والاشعاع الاثيري
والآن قام اناس يقولون ان الاجسام التي نراها بميوتنا ونلمسها بايادينا انما هي ظواهر
حقيقتها الكهربائية وان الدقيقة التي كان الكيميائيون يسمونها جوهرًا فردًا او جزءًا لا يتجزأ
لها في مجموع من الدقائق الصغيرة وهذه الدقائق ليست مادة مكهربة بل كهربائية محضة وكل
مجموع يختلف عن غيره في عدد ما فيه من دقائق الكهربائية وفي ترتيبها فيه ونسبة حركتها
بعضها الى بعض وإلى الاثير وعلى هذه الاختلافات وحدها تتوقف الخواص التي يمتاز بها ما
كان يسمى حتى الآن بالجواهر الفرد او بالجزء الذي لا يتجزأ . والجواهر الفرد خاضع لتأثير
التغير الشامل لكل ما في السماء والارض ولو كان تغيره بطيئًا جدًا يقتضي من الدهور ما لا
يحسب معه الزمن الفلكي اللازم لبرد شمس من الشمس شيئًا مذكورًا

فان كانت المادة مجرماً من الجواهر الفردة وان كان الجواهر الفرد مؤلفاً من الدقائق
الكهربائية فما هي هذه الدقائق . قد تكون كما ارتأى الامثاذ لارمور تغيرات في الاثير اشبه
بالعقد في مادة متصلة الاجزاء لا تنضغط ولا تمتد . وسواء صح ارجاع المادة الى هذه الدقائق
والوقوف عندها او لم يصح فهذه الدقائق غير منفصلة عن الاثير وتتوقف خواصها على اتصالها
به . ويستحيل ان تكون كهربائية والاثير غير موجود

حقاً ان هذا التغير عظيم جداً فنذ متفي سنة كانت الكهربائية العوبة عميقة وهي الآن
اصل المادة وجوهرها في نظر جمهور كبير من العلماء . ولم يثبت ان الاثير من عناصر الكون الا
منذ مئة سنة ومن المحتمل الآن ان يكون هو العنصر الذي يتألف الكون منه . ويترب على
ذلك امور في غاية الغرابة فقد كان يظن ان حجم الجسم شيء ثابت لا يعلل ولا يتغير مهما
تغير حجم الجسم فلا يزيد ولا ينقص ومهما تجزأ فكل جزء منه خواص الجسم كله المادية
مهما تغير ذلك الجزء شكلاً وجرمًا وتغيرت صفاته الكيميائية والطبيعية

ولكن اذا ثبت ما تقدم عن حقيقة المادة فحجمها قابل للتليل وقد علل فعلاً وهو ليس
خاصة من خواصها بل عرض عام ناتج عن النسبة بين الدقائق الكهربائية التي تتألف المادة
منها وبين الاثير الذين يحيط بها . وهو دائم التغير بحركته السريعة

ثم اتنا نعلم الرأي المشهور الآن من حيث اصل الشمس وسياراتها ونفاذ القوة منها في
شكل النور والحرارة وان الشمس المشرقة الآن هي في منتصف عمرها بين كونها سديمًا نشأت
منه وبين الظلة المدلحة التي تُصير اليها اخيراً حينما تنفذ القوة منها وتُصير الى برد قارس .
وان الشمس التي انقضى اجلها كذلك صارت في حالة السكون التام عناصرها جامدة لا تتحرك

و يستحيل عليها ان تعمل عملاً كيميائياً - ولا سبيل لها لتتدرج شيئاً من القوة التي فقدتها ما لم يصدفها جرم سماوي او تنتقل الى فضاء تسخنه شمس اخرى
ولكن اذا سلمنا بالمذهب الكهربائي تذبذب كل ذلك لان ما يزول من قوة الدقائق المؤلفة منها الشمس بفوقها الى حرارة اما بالتقلص بفعل الجاذبية او بالتفاعل الكيماوي او بقوة اخرى تفعل بين دقائق المادة وتبدد الحرارة في الفضاء الواسع على مر الزمان كل ذلك لا يزيل القوة كلها من دقائقها بل ان المقدار الذي يزول منها شيء طفيف جداً بالنسبة الى ما يبقى مخزونة فيها فالجسم كله تضعف قوته ولكن القوة المخزونة في دقائقه لا يزول منها شيء بل يقيم بعضها مع بعض ساكناً غير متحرك ويكون في كل دقيقة منها من القوة الداخلية ما لا تنادله

ثم هب ان احد علماء الفلك كان يرقب الكواكب فرأى كوكباً منها انبثق النور منه فجأة واشتمل واستحال الى غاز يضيء مدة ثم يطفى فانه يدهش لهذا الحادث العظيم ولكن الدقائق التي تنكسر جواهر ذلك الكوكب منها تبقى على حالها وتبقى القوى التي تربطها بعضها ببعض غير مثلومة. والقوة العظيمة التي تزول من الكواكب باشتعالها لا تحسب شيئاً مذكوراً في جنب القوى الكامنة بين دقائق جواهره

والقوى التي نعلمها ونبني حسابنا عليها هي اضعف القوى الطبيعية . وما الالفة الكيماوية وقوة التماسك التي تلتصق بها الجواهر بعضها ببعض سرى اثر طفيف من القوة الكهربائية التي تحتفظ الدقائق من التجزؤه. والجاذبية العامة التي تتقلص بها المواد السديمية تتكون منها الشمس وسياراتها اغماشي طفيف بالنسبة الى قوتي الجذب والدفع اللتين بين الاجسام المكهربة وهاتان القوتان طفيفتان جداً بالنسبة الى قوتي الجذب والدفع اللتين بين الدقائق الكهربائية المؤلفة منها الجواهر . وحركات جواهر المادة التي تسبب الحرارة وعاليتها تنوقف الحياة وبها تتعلق اكثر الاعمال الصناعية في العصر الحاضر لا تُعد شيئاً مذكوراً في جنب حركات الدقائق الاصلية التي تنأث منها الجواهر . والظاهر ان حركات الدقائق هذه بعيدة عن ان يصل اليها استعمالنا لاننا نعيشون على الحد المرصل اليها ولا امل لنا باستخدامها يوماً ما. فلا تدير معاميانا ولا تجر مركباتنا ولكنها لا تقصر عن ان تبيد عقولنا فان السماوات العلى قد راعت الناس وراقتهم من قديم الزمان فاعجبوا بها وعبدوها ولكن اذا كان التراب الذي تحت اقدامنا مؤلفاً من عوالم لا تُعد ولا تحصى عاصرها في حركة دائمة فائقة السرعة ومع ذلك مرت الدهور وستكرر العصور ويبقى توازنها على حاله فقرائب ما نراه بعيننا من حركات اجرام السماء

ليست اعجب من غرائب ما ارانا العلم الطبيعي حديثاً ولو بعين الاستنتاج
وسواء ثبتت هذه الصورة التي رسمتها لكم رسماً غير جلي او زالت في دورها كما زال غيرها
من صور الكون ورسمت صورة اخرى بدلاً منها على السجل العلي فكأننا نسلم ان محاولة توحيد
الطبيعة كما هو جار الآن لما يروق للعقول ويسر به المرء كما يسر اذا صدق في عقاب شاة
ثم اطل على سهل فسيح الزحاب تتخلله الانهار وتتأخره الهضاب . ولا اجسر ان اقول هل
لهذه الرغبة في توحيد الكون وردت الى اصل واحد بسيط موسوع عقلي فان البديهة لا تستلزم
على ما اعلم ان يكون العالم المادي صوراً مختلفة لجوهر واحد لا تراكيب مؤلفة من اثنين او
سبعين عنصراً بسيطاً ولكن لماذا نسر بالراي الاول ولا نسر بالثاني . فان العلماء كانوا دائماً غير
راضين عن تعدد الاصول فحجوا بكل ما يدل على ان الجوهر الفرد مركب وان لجواهر
الناصر كلها اصلاً واحداً تشترك فيه . وعندني ان هذا الميل النفسي ليس مما يقض الطرف
عنه او يستهان به . فقد كان الفيلسوف جون مل يستخف بالذين يستصحبون التسليم ان الافعال
لا تفصل من مكان الى آخر الا بموصل وكان يقول ان الاختيار يرينا انها تص من غير
موصل فلماذا تقرض وجوده استلزماً او موافقة تقرض في النفس لا يريده دليل . هذا هو
احتجاج مل ولا رد عليه عندي . ومع ذلك فان اعتقاد قردي ان الافعال لا تتقل من
غير موصل ادى الى اكتشافات بديعة ثبت عليها صانعا الكهربائية وما ترتب عليه الا ان من
اصل المادة . والا ان لا يسلم العلماء بما استسهل مل التسليم به وهو ان الاجسام تفعل بعضها
بعض من غير موصل بينها مع انهم لا يزالون يجهلون حقيقة التجاذب بين المواد
فما هو هذا الميل الى توحيد العناصر والمواد كلها والاعتقاد بان لها كلها اصلاً واحداً
ترد اليه . هل هو هوى في النفس يجب اطراحه او هو مفتاح لاسرار الكون لا يليق بالحكيم
الاعضاء عنه . ذلك مما لا استطع البحث فيه الا اني لانه توجد مسائل اخرى يستلزمها
الرأي الجديد واريد ان اوجه نظركم اليها في الدقائق الباقية
لامشاحة ان هذا الرأي الجديد في اصل المادة وحقيقتها يخالف اختيار الناس تمام المخالفة .
قل لم ان الكرة الارضية التي نحن عاثون عليها والاجسام الآلية التي من نصيبنا الاتصال بها
مادتنا في هذه الحياة الدنيا مؤلفة كلها من دقائق كهربائية متفرقة في الفضاء بينها ابعاد شاسعة
جداً بالنسبة الى اقطارها فلا يسهل عليهم تصور ذلك الا بعد امعان النظر . وهو يخالف
ايضاً الرأي الذي جرى عليه العلم حتى الآن وهذا الرأي هو ان صفات المادة على نوعين اولية
وثانوية فالاولية كاللحم والشكل موجودة في المادة من غير التفات الى الناظر اليها والثانوية

كالحرارة واللون كان يظن أنه ليس لها وجود ذاتي مستقل وما هي إلا نتائج ناتجة عن فعل الصفات الأولية بشاعرنا وهنا خالف الرأي الاخبار

ثم اشار الخطيب الى نزاع الفلاسفة في هذا الموضوع وفي وجود المادة وقال ان العلماء لم يجارروهم فيه لان العلم يفرض وجود المادة وصفاتها الى ان قام اصحاب المذهب الجديد الذين يقولون ان الجواهر الاصلية التي تتألف المادة منها ليست مادية بل هي اجزاء صغيرة من القوة الكهربية فنفوا بذلك وجود المادة ولم يتقوا في هذا الكون غير القوة الكهربية. ورأيهم هذا في نفي المادة مبني على نتائج استنتجوها من الرأي الاول القائل بوجود المادة وذلك من المدهشات فان العلماء الطبيعيين يدعون انهم يتراكل آرائهم العلمية على الاخبار وهذا الاخبار انما هو شعورنا بالكون المادي لكن النتائج التي اوصل اليها مناقضة له على خط مستقيم حسب الظاهر. اي ان ما اتصلنا اليه من معرفة حقيقة الاشياء مبني على مالا حقيقة له والصور العقلية التي نستخدمها في ايضاح هذه الحقيقة للغير منتزعة من تخيلات لاحقيقة لها يتبناها العلم عن الاعتقاد بها وتامرنا الطبيعة باستعمالها

وصلنا الآن الى مسائل يجب ان يبحث فيها منطقيًا ولكن علم المنطق لم يبا بها فلا يلام رجال العلم لانهم مشتغلون باكتشاف الاكتشافات لا بتجليل المسائل الاساسية التي يقتضيها اكتشاف هذه المكتشفات. ولا يلام الفلاسفة الباحثون في ما وراء الطبيعة لان آراءهم توجه الى جهات اخرى ورغبتهم في حل فلسفة الكون ضعيفة. وكيفا حلت المسائل التي يبحثون فيها بنوع خاص فحلها لا يقرب المشاكل التي اشرت اليها من الحل الحقيقي ولا يعدها عنه. فالعلماء الطبيعيون والفلاسفة الخياليون يبيدون عن البحث في هذه المسائل واما الفلاسفة الجريون فليسوا ببيدين عنها ولكنهم لم يحلوا ولا يظهر انهم فهموا انه توجد مسائل تستلزم الحل حاسبين ان مدار العلم انما هو البحث في الظواهر الطبيعية وانه يقضي ما يطلب منه اذا عرف الاسباب القريبة لان غرضه البحث عن نوايس الطبيعة لا عن حقيقتها واذ يبحث عن حقيقة المذاهب العلمية وكيفية الوصول اليها رأى ان البحث الاستقرائي الذي اعتمد عليه العلماء حتى الآن قليل الحقائق العلمية

ثم ان هناك امرًا آخر اهتم به كثيرًا ولو ظهر لي انه لا يهتم احدًا غيري. وهو ان معارفنا الطبيعية مبنية كلها على شعورنا. وهذا الشعور يقتضينا بوجود العالم المادي ويرشدنا الى اوصافه ومقوماته لكن شعورنا هذا مبني على شاعرنا فالذي نظره لا يتوقف على المنظور فقط بل على العين الناظرة ايضًا والذي نسمعه لا يتوقف على السمع فقط بل على الاذن

السامعة أيضاً . غير ان الميرون والآذان وكل الحواس نشأت لنا وفي اسلافنا من انواع الحيوان بالطريقة البطيئة طريقة الانتخاب الطبيعي . وما يصح على الشاعر يصح على القوى العقلية التي مكنتنا من ان نبني على مدركات الشاعر بناء العلم العظيم . ومدار الانتخاب الطبيعي النفع كما لا يخفى فما كان نافعا للتروع في جهاده لاجل البقاء حفظ ونقوى وما هو غير نافع فهو عبث ثقيل يزول مع الزمان . ومعلوم ان مشاعرنا ارتقت قبلنا صرنا نستخدمها في البحث عن اسرار الحقائق الطبيعية بدهور كثيرة لان اكتشافاتنا في هذا الباب انما حدثت بالامس . فقوى الانتخاب الطبيعي الخالية من الادراك فعلت فعل المدرك المدبر في اعدادها مشاعرنا لادراك ما تدركه الان وهي خالية من التدبير . فالصدفة العمياء قادتها الى تجهيز الانسان بالقوة الفسيولوجية والعقلية التي توهله للباحث الطبيعية العالية . والعلم الطبيعي يدلنا على ان كل حاسة من الحواس وكل قوة من قوى العقل لا تساعدنا على الحرب والاكل واخلاف الدسل انما هي فضلة زائدة عن القوى التي تساعدنا على ذلك فلم نعط الشاعر للبحث العلمي ولا ارتقت قوانا العقلية من قوى الحيوان الاعجم لقياس الافلاك وقسمة الجواهر

ولهذه الاسباب نجد ان ما يعتقد الناس من امر العالم المادي الذي هم فيه ناقص بل هو خطأ تام . فقد عاشوا كلهم حتى آخر القرن الماضي في عالم من الوم واوهامهم التي يهبنا النظر فيها الآن لا تلتقى بامور بعيدة او الهية فائقة الادراك بل بامور نراها ببيوتنا ونلها بايادينا — بامور الحياة العادية — الامور التي نختبرها وننظر اليها واثقين اننا نعلمها حق العلم . ولعل سبب ذلك ان وقوع هذه المحسوسات تحت ادراك الشاعر كان مانفا في طريق الجهاد لاجل البقاء بدلا من ان يكون مينا له او ان الكذب كان انفع من الصدق او انه لم يكن في الامكان البلوغ الى نتائج احسن من هذه مع ما نحن نبيد من نقص الاعضاء . واذا صدقت هذه النتيجة فهي تشمل غير الحواس من وسائل المعرفة اي انها تشمل قوى العقل ايضا . فان كان النشوء قد عجز عن ايجاد آلات بوثق بها لادراك الامور الاختبارية فكيف يمول عليه في تجهيز العقل بما يلزم له لاستخدام هذه الامور واستنتاج الاحكام العقلية منها

اعتبارات مثل هذه ان لم تكن قد ادجمتها ادماجاً يخرجها عن حد المهوم تدل دالة قاطعة على عدم الانتظام في كل مذهب علمي عام يبنى على العلم الطبيعي وحده . وسعوا نطاق المعارف كما تشاؤون وارسموا صورة الكون على ما تريدون وردوا كل ما فيه من التخالفات الى صور الاثير المائل الفضاها واستقصوا تاريخه الى زمن توأد الجواهر وبنوا كيف تفعل بها الجاذبية العامة فتكون منها السدم والشموس وكل كواكب السماء ثم كيف تجمعت هذه الدقائق في

كوكب منها وركبت المركبات الآلية ثم كيف صارت المركبات الآلية اجساماً حية وكيف ارتقت الاجسام الحية على اساليب مختلفة فتولدها منها اخيراً انواع من الحيوان ارقى من غيره وبعد قرون كثيرة نشأ من هذا النوع حفنة من العلماء فالتفتوا الى ما حولهم ونظروا الى العالم الذي انشأهم وعرفوه وحكموا عليه. افعلوا ذلك كله ففكرنا قد اوجدتم العلم ولكنكم لا تكونون قد اوجدتم شيئاً يكفي لانتاع العقل تمام الانتاع لانه يبقى شيء لا تفسره هذه السلسلة المتتابعة الاسباب والنتائج تفسيراً مقنعاً وهو اصل المعرفة نفسها فان العلم الطبيعي بحسب المعرفة نتيجة اشياء غير عاقلة لانه لا يعرف الا الاشياء غير العاقلة ولكنك يضطر ان بحسب المعرفة شيئاً عقلياً والآن انتم العلم نفسه. فالصعوبة الاولى هي استخراج معتقدات من الاختبار ينقضها الاختبار نفسه. والثانية هي التوفيق بين اصل هذه المعتقدات وبين ما تدعيها من الصحة لاننا كلما زدنا استقصاء في تحليل اصلها زدنا شكاً في صحتها وكما زاد المذهب العلمي شمولاً زادت الصعوبة في اكتشاف الوسائل التي علمناه بها استحكاماً.

هنا الحد الذي لا يتعداه العلم الطبيعي ووراء هذا الحد سجاهل لا يستطيع اكتشافها وانما هي من نصيب الفلسفة. وهي ليست من شؤون هذا الجمع لاننا قد اجتمعنا لترقي المعارف في قسم من اقسامها الكبيرة فلا نقيدها بشؤون التخوم وتغيير الحدود التي تفصل عادة بين قسم وآخر.

وقد يقال اني لم اجر على هذه السنة التي سنتها بل تحطيت الحدود التي يشغل ضمناها علماء الطبيعة. فان كان الامر كذلك فني العذر ومنكم الصغح ولقد كان غرضي الاول ان احرك في نفوس الذين مثلي ليسوا من علماء الطبيعة المخنكين الاحتمام بالمذهب الجديد الذي هو اوسع نطاقاً من كل المذاهب التي تدعي ان الامتحان يؤيدها. وان كان الغرور قد حثاني على الاشارة الى رأبي الخصري وهو ان العلم الطبيعي يزيد ميلاً في ارتقائه الى تفسير امور الكون تفسيراً غير مادي فالذين يوانقونني اقل من غيرهم لا يضنون بالعنوعي.